المقتطف

الجزء التاسع من المجلد الثامن والعشرين

١ سبتمبر (ايلول) سنة ١٩٠٣ — الموافق ٩ جمادى الثانية سنة ١٣٢١

مركيز سلسبري

مركيز سلسبري اكبر ساسة الانكليز في هذا العصر قضى نحبهُ مساء السبت في الثانية والعشرين من شهر اغسطس . أُصيب بالتهاب الكلية في أوائل يونيو الماضي وخالطهُ ضعف القلب وزاد ضعف قلبهِ رويدًا رويدًا حتى قطع الرجاء من شفائهِ وتوفي من غير ألم فجاءت وفاتهُ خاتمة حياة طويلة مفعمة بعظائم الاعمال ولكنها بعيدة عن محبة الأبهة والظهور

وُلد في هتفيلد ببلاد الانكليز في الثالث من فبراير سنة ١٨٣٠ وتوفي فيها في الرابعة والسبعين من عمرهِ وهو من سلالة وليم سسل لورد برلاي الذي نشأ في اواسط القرن السادس عشر وكان من اكبر وزراء الملكة اليصابات

درس في مدرسة اتن ومدرسة اكسفرد واتمَّ دروسهُ سنة ١٨٥٠ ونال رتبة بكلوريوس في العلوم وساح بعد ذلك في الاقطار فبلغ استراليا وزيلندا الجديدة فعرف احوال الناس وبلدانهم وعاد سنة ١٨٥٣ وطُلب منهُ ان يعود الى المدرسة للتدريس ففضل حزون السياسة على سهول العلم ودخل مجلس النواب نائبًا عن مقاطعة من حزب المحافظين وبقي في هذا المنصب الى ان توفي ابوهُ سنة ١٨٦٨ وآلت اليهِ القابهُ فدخل مجلس الاعيان باسم مركيز سلسبري

واقترن سنة ١٨٥٧ بابنة قاضٍ مشهور اسمهُ البارون الدرصن وكانت من نوابغ النساء في قواها العقلية الموروثة من والدها فساعدتهُ على ولوج ابواب السياسة والانشاء وجعل يكاتب بعض الجرائد الشهيرة ويكتب المقالات الانتقادية وكان يدافع عن الكنيسة وعن المحافظين. وامتازت خطبهُ حينئذٍ كما امتازت بعدئذٍ بعبارات لا تخلو من فوارص الكلم كقولهِ ذامًّا اعمال الحكومة انها اليق بالمحامين منها برجال السياسة ثم اضطرَّ ان يعتذر عن ذلك الى المحامين. وكقولهِ

مَن يستفيد شيئًا من جريدة ثمنها نصف غرش (بني) . واشهر جرائد المحافظين تباع الآن بنصف غرش . وكقولهِ عن اللورد جون رسل انهُ يعامل الدول الاجنبيَّة بالقحَّة قويةً كانت او ضعيفة . ولم يبدُ جوهرهُ ولا ظهرت مقدرتهُ الاَّ لما بلغ غلادستون وبدت شدة عارضتهِ في توسيع نطاق الانتخاب

ولما أَلَّف لورد دربي الوزارة سنة ١٨٦٦ دعا صاحب الترجمة اليها واعطاهُ وزارة الهند من غير ان يكون قد استعدَّ لها الاستعداد العادي فبدت مهارتهُ حالاً قولاً وعملاً

ولم يكد يدخل مجلس الاعيان حتى بدت مقدرتهُ ورأى فيهِ مَن يعجب بفصاحتهِ وقوة عارضتهِ فانهُ كان خطيباً مفوَّهًا وعبارتهُ وجيزة اللفظ دقيقة المعنى خالية من البرقشة البديعية . واتفق ان المسائل التي عُرضت على الاعيان لينظروا فيها حينئذٍ كانت من المسائل التي يودُّ هو البحث فيها فقال ان المسائل الهامة التي مثل هذه لا يليق بوزارة ان تهتمَّ بها وهي في اواخر ايامها بل لا بدَّ من عرضها على البلاد كلها . اي لا بدَّ من اعادة الانتخابات قبل النظر فيها اما مجلس الاعيان فشأنهُ الموافقة على ما يجمع عليهِ جمهور النواب اذا اجمعوا عليهِ من تلقاء انفسهم معتقدين صحتهُ وهاك ما قالهُ في هذا الصدد

" اذا رأيتم ان اهالي بلادكم ارتأوا رأيًا وانهم معتقدون صحة شيء اعتقادًا صريحًا وجب عليكم ان تجاروهم . وقد لا تسرُّون بذلك او قد تودون تحويلهُ على صورة اخرى . ومن البين ان اعضاء الوزارة الذين يُطلَب منهم ان يفعلوا ما يخالف رأيهم واعتقادهم يستطيعون ان يستعفوا منها واعضاء مجلس النواب الذين يُطلَب منهم ان يعضدوا امرًا مناقضًا لاعتقادهم يستطيعون ان يتركوا مجلس النواب واما انتم فلا تستطيعون ذلك وعليهِ لا يبقى امامكم الاَّ ان تسلموا لرأي الامة اذا اتفقت على امر مخالف لرأيكم والاَّ بطلت اعمال الحكومة "

ولم تمضِ عليهِ مدة طويلة حتى اضطرَّ ان يجري على هذا المبدإ فان الوزارة التي تألفت حينئذٍ اثبتت امرًا يتعلق بالكنيسة الارلندية مخالفًا لرأيهِ فقال للاعيان ان هذا الامر كان منظورًا لما جرت الانتخابات فالاكثرية التي انتخبت الاحرار واعطتهم مقاليد الاحكام كانت تعلم غرضهم ومياستهم فرأيهم رأيها ولذلك هو رأي الاكثرية ولا بدَّ لنا من الموافقة عليهِ . وكان من رأيهِ ان تعطي الحكومة الرواتب للكهنة الكاثوليك في ارلندا ولو فعلت ذلك لاصطنعتهم ونجَّت تلك البلاد من القلاقل

وتوفي لورد دربي الاكبر سنة ١٨٦٨ وكان مشيرًا لمدرسة اكسفرد الجامعة وهو من العلماء والكتَّاب وقد ترجم اشعار هوميروس الى الانكليزية . فانتخب مركيز سلسبري خلفًا لهُ فافاد

المدرسة فوائد جمَّة لانهُ كان يشتغل بالعلم ايضاً رغماً عن اشتغالهِ بمهام السياسة سواءٌ كان في الوزارة او خارجاً عنها لكن اشتغالهُ العلمي كان في المواضيع الطبيعيَّة كالكيمياء والفلسفة الطبيعيَّة اكثر منهُ في علم الاحياء وفلسفة العلوم الطبيعيَّة والاَّ ما ارتكب الخطأ الذي ارتكبهُ في خطبتهِ التي خطبها لما كان رئيساً لمجمع ترقية العلوم البريطاني حينما اجتمع في

مركيز سلسبري

اكسفرد سنة ١٨٩٤ وهي التي ترجمناها ونشرناها في المقتطف بعنوان مجاهيل العلم وقد قال السر ميخائيل فوستر العالم الفسيولوجي الشهير في صدد ذلك ما ترجمتهُ " لقد ندَّد لورد سلسبري رئيس المجمع البريطاني بالمذهب الداروني فلما قام هكسلي ليشكرهُ على جاري العادة انبعثت اصوات البشر والترحيب من الجمع المزدحم حتى صمت الآذان وكأنَّ لسان حالهم يقول

هذا هو الخادم الامين الذي خدم العلم اكثر من خمسين عاماً خدمة صادقة ناظراً الى الحق بعزم شديد ومرادهُ ان يعلم ان اتعابهُ لم تذهب سدًى . وكان لورد كلفن زعيم علماء الطبيعة قد قام قبلهُ ليشكر اللورد سلسبري وقال ان الخطبة التي اصغوا اليها برغبة وتشوُّق قد دخلت ميداناً فيهِ سعة للعلم والفكر فاقتيدت بها افكارهم من العصور الوسطى الى اواسط القرن الحاضر فظهر لهم ان مدارس اكسفرد بقيت في طليعة علماء العصر . وقد سمعوا عن اعمال داروِن العظيمة التي جعلت الناس يفتكرون ويجاهرون بافكارهم كما يشاؤون . وان اساليب علم الحياة التي لم يضعها داروِن بل وسَّعها كثيراً ورقَّاها ثبت انها نافعة جدًّا للعلم وللدين وللعقل . ويظهر من خطبة الخطيب من اولها الى آخرها انهُ من طلبة العلم ومن رجالهِ الذين لا يحصرون انفسهم ضمن دائرة ضيقة من دوائرهِ بل يتسعون فيهِ ويشتغلون بكل فرع من فروعهِ . وقد وقف اكثر قواهُ لعلم السياسة ولو جرى على مقتضى طبعهِ لفضَّل ان يقفها للمباحث الكيماوية او نحوها من المباحث العلمية . ثم استدعى وجوب الشكر لهُ على خطبتهِ المفيدة . فلما قام الاستاذ هكسلي يؤيد طلب الشكر على جاري عادتهم (وهم يختارون لذلك خيرة رجالهم) قال

انهُ كُلِّف هذا العمل الشريف وهو تأييد الشكر ولكنهُ يأسف لان صحتهُ منعتهُ عن حضور هذا الاجتماع السنوي منذ سنين عديدة فنسي الرسوم المتَّبعة في مثل ذلك واضطر ان يراجع في ذهنهِ ما كان يجري في المجمع في الايام السالفة منذ اربعين عاماً فرأى انهم كانوا يقتصرون على الشكر والمدح بعد تلاوة خطبة الرئاسة ويتركون الجدال والمناظرة الى الاجتماعات الاخرى التي تجتمعها اقسام المجمع . ثم قال ان خطبة الرئيس جزيلة الفائدة وحريَّة بان يُنظر فيها في قسم البيولوجيا . وان فيها كثيراً مما يعجب بهِ جدًّا ويوافق عليهِ اتم الموافقة . واستطرد الى مسألة النشوء ومذهب داروِن فقال انهُ جرت فيهما مناظرة عنيفة بين بعض العلماء منذ اربع وثلاثين سنة وهي التي اشار الرئيس اليها فقال انصار داروِن ان انواع النبات والحيوان غير ثابتة على حال واحدة بل تتغير دواماً وقد تولَّد بعضها من بعض وتولَّدت كلها من اصول قليلة العدد فقال الناس عنهم انهم يقصدون تقويض اسس الدين والصلاح وان النسبة بينهم وبين الحيوانات الدنيا قريبة جدًّا ولذلك يحسبون اصل الانسان منها . الاَّ ان آراء الناس تغيرت كثيراً في هذه الاربع والثلاثين سنة التي مرَّت لانهُ رأى الخطيب يصرِّح في خطبتهِ جهاراً ان القول بثبوت الانواع على حالها قد نُفي نفياً مطلقاً . وان قليلين يشكُّون الآن في ان بعض افراد النوع الواحد من انواع الحيوان قد تختلف بعضها عن بعض اكثر مما يختلف نوع عن آخر من انواع الحيوان كلها . فهذه القضايا التي يقول بها اصحاب

النشوء في اساس مذهبهم وعندهم ان مذهب دارون ومذهب سبنسر ومذهب هكل ومذهب وسمن ليست النشوء عينهُ بل هي مذاهب ذهب اليها اصحابها تفسيرًا لكيفية حدوث النشوء فهي مبنيَّة على النشوء ولكنها ليست اياهُ . اما النشوء فثبت على مقاومة خصومهِ كل هذه السنين . وقد ختم لورد سلسبري على صحتهِ تلك الليلة بخاتم الرئاسة . ثم رحَّب بلورد سلسبري لاعتناقهِ مذهب النشوء جديدًا وشكرهُ بالاصالة عن نفسهِ وبالنيابة عن نصراء دارون الذين لم يزالوا في قيد الحياة على ما اثنى بهِ على ذلك الرجل العظيم . فشكرهُ لورد سلسبري ووافقهُ على اقوالهِ "

وانتقلت الوزارة الى المحافظين سنة ١٩٧٤ فرأسها دزرائلي وجعل مركيز سلسبري وزيرًا للهند وضربت المجاعة اطنابها في تلك البلاد حينئذٍ فارتأى البعض ان يمنع خروج الحبوب منها فرفض سلسبري ذلك حاسبًا مصادرة التجارة اضرَّ من كل ضرر فكانت النتيجة ان تجار الحبوب صاروا يرسلون حبوبهم الى الاماكن التي ظهرت فيها المجاعة فقلَّ ضررها . وفي عهد تلك الوزارة لُقِّبت الملكة فكتوريا امبراطورة لبلاد الهند وهو الخاطر الذي خطر على بال دزرائلي واثبتهُ في رواية تنكرد التي عربناها ونشرناها في المقتطف منذ اربع سنوات فاخرجهُ من القوة الى الفعل كما اخرج غيرهُ من الخواطر . اما راي مركيز سلسبري من قبيل معاملة الانكليز للهنود فاوضحهُ في خطبة خطبها في مدرسة كبرس هل سنة ١٨٧٥ حيث قال

" ان جمهور اهالي الهند راضٍ بحكمنا كما اعلم عن ثقة ولقد كثر تغيُّر الملوك على بلاد الهند حتى لم يعُد الهنود يأنفون من تغيُّر ملوكهم غير ان الحكومة لا تثبت اذا شعر المحكوم انهُ ذليل في عيني الحاكم وشعر الحاكم انهُ اعز من المحكوم ويجب ان يذلهُ . فالذين يذهبون من انكلترا الى بلاد الهند لكي يذلوا اهلها هم اعداء انكلترا الذين يجب عليها ان تخشى شرهم لان في طاقتهم ان يقضوا على حكمها في تلك البلاد . ولكنني واثق ان الجميع يعرفون ما يجب عليهم وان التلامذة الذين يخرجون من هذه المدرسة ويذهبون الى بلاد الهند يذهبون اليها كدعاة للعمران شاعرين انهُ يُطلب منهم ان يمكِّنوا ربط الاتحاد بين انكلترا وتلك البلاد العظيمة التي كان من نصيبنا ان تتولَّى حكمها "

ويظهر لنا ان كثيرين من الانكليز يجرون هذا المجرى ولولا ذلك ما تمكنوا من البقاء في بلاد الهند ولا في هذا القطر ولكن البعض لا يجرون عليهِ بل قام في نفوسهم ان اذلال الرعيَّة يرفع شأن رعاتها . ولو كانوا كثارًا في مستعمرات انكلترا لما قامت لها قائمة فيها

وحدثت حوادث البلغار سنة ١٨٧٦ ونهض غلادستون يثير البلاد على الحكومة ونثبت

الحرب في السرب والجبل الاسود وطلبت روسيا لها الهدنة واشارت انكلترا بعقد مؤتمر الاستانة ليشير بما يجب عمله لتسكين الخواطر في البلدان العثمانية وعينت مركيز سلسبري نائباً عنها في ذلك المؤتمر فمرَّ بعواصم اوربا وذاكر وزراءها وهو ذاهب الى الاستانة ولم تكن الدولة العلية راغبة في عقد هذا المؤتمر كما يظهر من التلغراف الذي بعث به صفوت باشا الى سفير تركيا في لندن ولا كانت روسيا راغبة فيه

والتأم المؤتمر في دسمبر تلك السنة وكانت انكلترا قد وضعت الشروط التي يجب ان تراعى فيه وهي حفظ الحالة التي كانت في السرب والجبل الاسود قبل الحرب وامتناع الدول كلهن من الاستفادة من حوادث تركيا وحفظ البلاد العثمانية مع ادخال الاصلاح اليها مضمونًا بضمانات كافية

وفُضَّ المؤتمر في ٢٠ يناير سنة ١٨٧٧ من غير ان يأتي بنفع وشهرت روسيا الحرب واعلنت انكلترا انها تبقى على الحياد ما دامت الحرب لا تمس مصالح رعاياها في مصر وترعة السويس والدردنيل وما دامت روسيا غير عاملة على اخذ الاستانة نفسها . فلما تقدَّمت جنود الروس في البلقان اوجست انكلترا شرًّا وسألت روسيا عما تنويه للاستانة وامرت اسطولها ان يذهب الى الدردنيل في ٢٣ يناير سنة ١٨٧٨ . وأُمضيت شروط الصلح بين تركيا وروسيا في ٣ مارس وهي المعروفة بشروط سان ستفانو ولما أُعلنت بعد ثلاثة اسابيع قامت انكلترا وقعدت واضطرَّ لورد دربي ان يستعفي من وزارة الخارجية فأُسندت الى مركيز سلسبري فنشر منشوره المشهور لوكلاء بريطانيا في كل البلدان ومفادهُ ان مركز تركيا قد حُدِّد في معاهدة باريس التي وقَّعتها الدول الاوربيَّة سنة ١٨٥٦ فكل ما يغير مركز تركيا الآن يجب ان يكون باتفاق تلك الدول . واشار بعقد مؤتمر برلين وبوضع شروط أُخرى للصلح غير شروط سان ستفانو . ورأت روسيا ان لا مناص لها من امر من امرين اما القبول بعقد هذا المؤتمر او محاربة انكلترا ولم تكن مستعدة للحرب فقبلت بالمؤتمر كرهًا

فعُقِد المؤتمر وجاءهُ دزرائلي وسلسبري من قبل انكلترا بعد ان عقد سلسبري معاهدة سرية مع سفير روسيا في لندن افشت جريدة الغلوب امرها

ونتائج ذلك المؤتمر معلومة لدى الخاص والعام وهي ان روسيا لم تعد تعبأ بخلل يحدث في تركيا ولا عجب اذا سُرَّت به لانهُ ينيلها منها ما لا تنالهُ بالسلاح . وذئاب اوربا تجمهرت من كل صقع تخطف ما تستطيع اختطافهُ من ارزاق العثمانيين والمرابون الاوربيون قضوا لبانتهم فاستوهنوا اعظم موارد السلطنة ولا يزالون يطلبون المزيد

وسقطت وزارة دزرائيلي سنة ١٨٨٠ وقامت وزارة غلادستون وتوفي دزرائيلي في السنة التالية تخلفهُ سلسبري في زعامة المحافظين وفي غضون ذلك احتلَّت انكلترا مصر وتركت السودان وكادت تنشب الحرب بينها وبين روسيا على حدود الافغان فكان للسبري مجال واسع لمناضلة وزارة الاحرار الى ان سقطت سنة ١٨٨٥ وكان قد خلا لهُ الجوّ فاستدعتهُ الملكة واسندت اليهِ رئاسة الوزارة وهي اول مرة تولاَّها ولم تطل مدة وزارتهِ فاعيدت الانتخابات فكانت الاكثريَّة للاحرار لكنهم انقسموا بسبب لائحة الاستقلال الاداري لارلندا واعيدت الانتخابات ففاز المحافظون وبلغت اكثريتهم ١١٨ بمن انحد معهم من الاحرار ودامت وزارتهُ هذه النوبة من سنة ١٨٨٦ الى سنة ١٨٩٢ وحدثت في غضونها حوادث مهمة كقيام بولنجه في فرنسا وعقد المحالفة الثلاثية بين المانيا والنمسا وايطاليا واتفاق انكلترا والمانيا على اقتسام ما تمتلكانهِ في افريقية وما تنويان امتلاكهُ فيها وسكون القلاقل في اوربا في اواخر هذه المدة واتساع الخرق بين قسمي حزب الاحرار

وأُعيدت الانتخابات العموميَّة سنة ١٨٩٢ ففاز الاحرار باكثريَّة قليلة وعاد غلادستون الى دست الوزارة وصادق مجلس النواب على لائحة الاستقلال الاداري لارلندا لكن مجلس الاعيان رفضها . واضطرَّ الضعف غلادستون الى ترك الوزارة للورد روزبري فظلت في يد الاحرار الى اواسط سنة ١٨٩٥ حين استعفت لسبب طفيف وأُعيدت الانتخابات فكان الفوز للمحافظين وانصارهم المتحدين وعاد سلسبري الى الوزارة ولا تزال الحكومة في يد المحافظين الى الآن

وحدثت المذابح الارمنية في هذا الاثناء فقام خطيباً ينذر بالويل والدمار وهو يحسب ان الكلام يقوم مقام الحسام وفاتهُ انهُ ان كانت انكلترا محقة في التعرُّض لشؤون تركيا الداخلية فالتعرُّض لا يكون بالكلام وان كانت غير محقة فالكلام لا يجدي نفعاً . ولو كان للرعايا الانكليز مصلحة مالية في منع المذابح الارمنية لخرت بوارجهم فوق جبال طورس ألاَ ترى ان مصالحهم جمعت مئات الالوف من الجنود ودوَّخت بهم بلاد الترنسفال من اقصاها الى اقصاها . وكل وزير يهمل مصلحة بلادهِ المالية اهتماماً بغيرها فهو خائن عهد الامانة لامتهِ ولذلك لا يلام سلسبري اذا اهتمَّ بمصلحة بلادهِ ولم يهتم بسواها لان مصالح الغير لما مَن يهتم بها وليس في قوانين البشر ما يوجب على وزير دولة من الدول ان يهمل مصلحة دولتهِ ويهتم بمصلحة دولة اخرى

وفي غضون هذه الوزارة استُرجعت بلاد السودان بامر منهُ باغت بهِ الحكومة المصرية لما علم ان المعدات الحربية تهيأت لاسترجاعها . وخيف من وقوع الحرب بين انكلترا والولايات

المتحدة الاميركية بسبب التخوم في فنزويلا ثم انقضى الخلاف بالتحكيم. وضُمَّت بلاد الترنسفال الى الاملاك البريطانية بعد حرب شيبت الولدان. واتفقت الدول الاوربية على اخماد ثورة البكسر في الصين وحمَّلت الصين نفقات الحرب فاصبت مديونة لاوربا باموال طائلة تضطر ان توفي رباها سنة بعد سنة وتصغي الى اوامرها كما يصغي المديون الى الدائن والضعيف الى القوي. واعيدت الانتخابات مرة ثانية فزادت اكثرية المحافظين والمتحدين معهم وترك سلسبري حينئذٍ وزارة الخارجية وبقي في رئاسة النظار. وفي العام الماضي امضيت محالفة بين انكلترا واليابان الى خمس سنوات وهو الذي وضع اساسها. وتوفيت الملكة فكتوريا فاقرَّهُ ابنها في منصبهِ وكان يود ان يحضر تتويجهُ ثم يستعفي من مناصب الحكومة لشيخوختهِ وضعف صحتهِ ولكن التتويج تأخر بسبب مرض الملك فاضطرَّ ان يستعفي قبلهُ ورفع استعفاءهُ في ١١ يوليو من العام الماضي فاثنت البلاد كلها مع ملكها عليهِ لانهُ خدمها خدمة صادقة بالهمة والنشاط والحكمة والسداد

وخُطَب سلسبري ومقالاتهُ التي نشرها في الجرائد والمجلات تملأُ مجلدات كبيرة ويظهر منها كلها انهُ كان محبًّا لوطنهِ عاملاً على رفع منارهِ يخالف غلادستون في بعدهِ عن الافراط والتفريط وكان لهُ في زوجتهِ اكبر معين فانها كانت تشاركهُ في اشغالهِ السياسيَّة فيطلعها على كل شيء ويعتمد على رأيها وهي كانت من نوابغ النساء عقلاً وذكاء ثم لما مرضت وتوفيت جعل اعتمادهُ بعدها على ابنتهِ الصغرى فكانت بمقام كاتم اسرارهِ

وكان شديد التدين متمسكاً بعقائد الكنيسة الانكليزية وتدينهُ كان الجامعة بينهُ وبين غلادستون وسبب التوادّ بينهما مع انهما كانا في السياسة على طرفي نقيض. ولولا خوضهُ غمار السياسة لكان من العلماء الطبيعيين الذين يشار اليهم بالبنان. ولم يترك البحث العلمي ولاسيما في الكيميا فكان يلجأُ اليها كلما طلب الراحة من متاعب السياسة

ولم يكن شديد الالفة ولا خبيرًا باقدار الناس بنوع عام لكنهُ كان يعرف الناس المشتغلين معهُ ويقدرهم قدرهم وكانت الملكة فكتوريا تكرمهُ وتعدهُ من اصدقائها المخلصين لعرشها وتثق بآرائهِ السياسيَّة ثقة تامة. وكان الاعيان كلهم يجلون قدرهُ ويصغون الى اقوالهِ كانها منتهى الحكمة والسداد وقد كانت كذلك لانها مبنية على اسس وطيدة وهي احترام الحرية الشخصية وحقوق الغير والاحتفاظ بما ورثتهُ الامة الانكليزية من اسلافها من المجد والعظمة والابتعاد عن الحروب وويلاتها بكل واسطة ممكنة. هذا لباب سياستهِ التي اقامها مدة خدمتهِ لبلادهِ